أسلحة البرّ من اليمين واليسار

"بل في كلّ شيء نُظهر أنفسنا كخدّام الله... بأسلحة البرّ لليمين ولليسار"

اعتاد الناس أن يسمّوا الأمور الإيجابية والكريمة "يميناً"، وعلى العكس الأمور السيّئة والدنيئة "يساراً". والمدهش هنا هو إعلان بولس الرسول أنه أظهر نفسه خادماً لله حين تعرّض لتجارب من اليمين أو لتجارب من اليسار أيضاً!

إن الظروف البشريّة المختلفة يمينية أو يسارية كانت، هي شيء من طبيعة الحياة اليوميّة. يولد الإنسان كائناً فريداً في بيئة متعدّدة الأوصاف والشروط. ولا يحيا آدميّ دون محاولة للتأقلم مع ظروفه، التي منها المناسب ومنها المعيق، وقد تكون هذه المحاولة ليست سهلة دائماً! وتبقى إرادة الإنسان في الحياة (الوجود) وفي نوعيتها (تحقيق غاية وجودها) عرضةً لتجارب وظروف عديدة كلّ لحظة. هناك ثلاثة مصادر لهذه التجارب وهي: العالم المحيط بالإنسان، أي الله والشيطان بالإضافة للإنسان ذاته. "فالله يؤدّب (يجرب) من يحبُّه". والشيطان يجرّب الإنسان بالغواية فهو أبو الكذب. ولا يُصيب الإنسان في أحكامه كلّ لحظة، هكذا يضع نفسه مرّات عديدة في تجارب.

فكم بالحريّ عندما يكون هذا الإنسان رسولاً؟ يعرف بولس ويُعلن "إنّ مَن يحبّون يسوع المسيح يُضطَهدون" (٢ تيم ٣، ١١). وهذا طبيعيّ ومنتظر لإنسان ينادي بالحقّ ويحياه في عالم كثُر فيه الباطل! مَن يدرج نفسه في خدمة الإنسان ورفع حياته من الأرضيات إلى السماويات ومن عبوديّة المادّة إلى حريّة الروح، هذا إنسان سيحمل كلّ لحظة صليباً وسيتعرض دائماً لاضطهادات وتجارب. الإنسان كائن حرّ، لذلك لا تشكّل التجربة بحدّ ذاتها خيراً ولا شرّاً، بل الخير والشرّ هو في قرار الإنسان واختياره الحرّ. قد تكون التجربة سهلة أو قاسية، لكن ذلك لا يعني أبداً أنّها صالحة أو شريرة. لذلك التجربة هي عرضٌ على الإنسان يخرج منه إمّا بقرار صالح أو سيّء.

لذلك نفهم هنا كيف يُظهر بولس ذاته خادماً للكلمة بأسلحة البرّ لليمين واليسار. فالتجارب والظروف المناسبة تقود للبرّ- وقد لا تقود إلى ذلك. والتجارب والظروف المعاكسة تقود أيضاً للبرّ- وقد لا

تقود. لهذا لا نستغرب كيف تختلط في كلمات بولس كلّ الظروف ودون ترتيب. ونراه يعدّد "الهموم والشدائد والجلدات والسجون... والأتعاب والطهارة وطول الأناة واللطف والروح القدس والمحبّة بلا رياء وكلمة الحقّ وقوة الله، من اليمين واليسار". وهذه كلّها استخدمها بولس للبرّ. هذا التعداد بكمّه واختلاطه يوحي لنا تماماً نظرةَ بولس أن اليمين واليسار هما أمران سيّان من حيث الأهميّة. لأن الخير والشرّ، البرّ والإلحاد، هما في القرار البشريّ الحرّ.

تجارب اليمين، حسنة ولكن ليس دائماً. لأنّها وإن كانت ظروفاً سهلة قد تصير غواية وخدعة. فما بالنا إذا قادتنا الطهارة والعلم وطول الأناة واللطف... إلى الكبرياء والتعالي ونسيان الله؟ ألا تعود هذه كلّها رذائل لأنّها كالقبور المكلّسة التي ذكرها يسوع، تبدو من الخارج رائعة وداخلها عفنٌ ونجاسة وفريسيّة! لذلك يدرج بولس الرسول بين هذه الفضائل مع "الروح القدس". لأنّه يعرف أن من يحقّق كلّ هذه ليست الفريسيّة البشريّة بل الهبة والنعمة الإلهيّة. هذه كلّها من النعمة. لذلك صارت ظروفاً وتجاربَ يمينية سهلةً ومفيدة للحياة، وللرسالة.

وتجارب اليسار، ليست سيّئة عندما تقودنا إلى الاتّكال على الله. إن الألم في الحياة يقود المؤمن إلى الاختبار. والله يمحِّص المؤمن في البوتقة ويجرّب من يحبّه. وكلّما بلغ الاختبار أقصى حدّته يصير الله أقرب ما يكون من الإنسان. فلا يعود آنذاك الإنسان يواجه تحدي المستحيل وحسب بل اللامعقول أيضاً وهو فرح. لذلك نردّد في صلواتنا المسائيّة دعاءَنا لوالدة الإله أن تتشفع لدى ابنها أن: "يجعلني لوصاياه فاعلاً مختبراً". ويقول الأدب الرهبانيّ "ارفع التجارب فلا يخلص أي إنسان". سفر أيوب يطيل سرد الأحداث ويعدد الأوصاف ليبرهن في النهاية أن محبّة الله عند أيوب هي هي في اليمين من الظروف وفي اليسار. يريد سفْر أيوب بالنهاية أن يطهّر العلاقة بين الله والإنسان. فالله محبّ حين يعطي الخيرات وحين نفقدها. وأيوب أمين ومحبّ لله حين يكون في بحبوحة وحين يتضوّر ألماً. ولا خير أو شرّ في الأحداث، وإنّما الخير لأيوب أن يبقى في محبّته لخالقه. إن محبّة المؤمن لله وثقته به تجعله في الفرح ذاته وترفعه ليتكيّف مع سرّ حكمة الله. ويصير الظرف من اليمين كالذي من اليسار! "كل شيء يؤول لخير المؤمن". فالتجربة من اليسار سيّئة فقط عندما نواجهها بمعزل عن نعمة الله، وتؤول للخير فقط عندما نواجهها "مع النعمة".

تتلوّن ظروف الإنسان بحكم طبيعة الحياة ففيها الألم كما الفرح، والمرض كما الصحّة، والعوز كما الشبع، والفشل كما النجاح، وموت عزيز كما ولادة جديد... وهذه كلّها تعبث بحياة الإنسان عندما يراها

ظروفاً جيّـدة أو سـيّئة! لكنّها كلّها تبني حياة الإنسان وتمحّصها عندما يعرف أنّها تجارب يمكنه أن يستخدمها أسلحةً للبرّ لليمين ولليسار، آمين.